تمهيد:

إنّ معرفة قيمة وتميز الرؤية الكونية التوحيدية يزداد تجليا أكثر بمقارنته بالرؤى الكونية الأخرى، وقد اكتفت هذه المحاضرة ببيان خصائص نموذج واحد مقابل للؤية الكونية التوحيدية، وذلك لغلبة هيمنته على العالم، والمتمثل في الرؤية الكونية الوضعية:

أولا: خصائص الرؤية الكونية التوحيدية: هي رؤية بالبصر والبصيرة، أي رؤية بالعين موجهة بالوحي تتميز بالخصائص التالية:

1-الرؤية التوحيدية مستمدة من علم الله الذي يعلو على الزمان والمكان:

ويتجاوز العصر، فهو علم الله سبحانه وتعالى، بأبعاده الزمنية الثلاثة وببعدها الرابع، الذي يغوص في أعماق النفس الإنسانية، هذه النفس التي هي مصدر الفعل التاريخي، الذي يمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية، فعلم الله سبحانه وتعالى، وسع كل شيء، فالله سبحانه وتعالى هو صانع الواقعة التاريخية، وهو الذي وضعها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري، والكوني على السواء، فالرؤية التوحيدية رؤية ذات بعد غيبي كوني.

2-الرؤية التوحيدية رؤية منفتحة : على جميع الأحداث في الكون، وعلى كافة القوى الفاعلة في التاريخ المنظورة وغير المنظورة، العقلية والوجدانية، الروحية والمادية، الطبيعية والغيبية، دون فصل أو عزل أوتهميش لأي عنصر.

3-الرؤية التوحيدية رؤية شاملة وكلية : شاملة في امتداداتها الزمنية، الماضي والحاضر والمستقبل، وكلية من حيث أنهالا ترجع حركة التاريخ إلى عامل واحد، بل أنهاتدرك بعمق، العلاقة بين الله والإنسان والكون، فحركة التاريخ هي لقاء خلاق بين الله والإنسان والطبيعة بما فيها الزمن.

4-الرؤية التوحيدية رؤية واقعية :تعترف بكل الحوادث التاريخية، مهما كانت ضآلتها فنجد هذه الرؤية مثلا :تعترف بالتمايز القومي، رغم عالمية الإسلام، واستعلائه على الكيانات المنغلقة، نجد الرؤية التوحيدية تؤكد ضعف الإنسان، وعجلته وتقلبه، رغم أنه خليفة الله في الأرض.

5-الرؤية التوحيدية، هي رؤية تستمد عناصرها من الوحي) القرآن الكريم :(فهو يزودها بالسنن الأساسية لحركة التاريخ، وهذه السنن من صنع الله سبحانه وتعالى، إرادة وعلما ومصيرا،)) فجل سور القرآن الكريم لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة سريعة لحدث ما أو تأكيدا على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ"، إضافة إلى أن القرآن الكريم ينقلنا بخفة وإبداع بين الأزمان الثلاثة، حيث تزول الحواجز وتذوب الفواصل وتسقط الجدران، فالرؤية المستمدة من القرآن الكريم تحيط بالماضي لكي تكثفه في قواعد وسنن، وتفاعله مع الحاضر والمستقبل، باعتبار أن الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة حيوية تحكمها سنن واحدة، تتعانق هذه الأزمان في الزمن الحاضر، فتزول الحدود بينها فتغدو حركة التاريخ واحدة، تبدأ يوم خلق الله السماوات والأرض، وتتجه نحو يوم الحساب.

6–الرؤية التوحيدية رؤية موضوعية حية : من حيث أنها تربط وتوازن، وتدرك العلاقة المتبادلة بين سائر القيم التي تصنع التاريخ، مادية وروحية، طبيعية وغيبية.

7–الرؤية التوحيدية ليست رؤية لاهوتية مجردة :بل هي رؤية قيمية ذات جذور عميقة بالعالم وتجربة التاريخ.

ثانيا:النظرة الوضعية وخصائصها:

هي نظرة تتم عن طريق البصر وما يتبعه من جملة دماغية وعقل، وهي نظرة مستقلة عن الوحي وتتميز بالخصائص التالية:

1–النظرة الوضعية نظرة إنسانية :بما تحمله هذه الرؤية من قصور، فالعقل محدود والحواس محدودة، فمجال الرؤية الإنسانية محدود، لا يتجاوز مجال الدراسة كما يسميه المؤرخون.

2–النظرة الوضعية نظرة منغلقة :مرتبطة بمجال محدد يسمى مجال الدراسة، و لا تتناول إلا جزءا من القوى الفاعلة في التاريخ، وهي القوى المادية المنظورة.

3–النظرة الوضعية نظرة جزئية :جزئية في امتداداتها الزمنية فهي تمتد إلى الماضي لتختار منه ما يعزز وجهات نظرها المذهبية المسبقة، وترغم بها الحاضر والمستقبل، وجزئية أيضا من حيث أنها ترجع حركة التاريخ إلى عامل واحد، وتلغي العوامل الأخرى إلغاءا (تفسير لاهوتي، تفسير فردي بطولي، تفسير نفسي مادي، تفسير جنسي) ولا تدرك، العلاقة بين الله والإنسان والكون، فحركة التاريخ عندها تتأثر دائما بعامل واحد.

4–النظرة الوضعية نظرة مجانبة للواقع : إذ يعمد المؤرخ إلى الكلام عن الواقع التاريخي وتفسيره، لكن بالصورة المرسومة في ذهنه مسبقا.

5–النظرة الوضعية نظرة مذهبية :مذهبية تقولب الوقائع التاريخية، وتصبها في هيكل مسبق، وتستبعد كل التفسيرات التي لا تنسجم مع هذا الهيكل المتصور، فهي تصيغ الحقائق التاريخية حسب المذهب المصنوع سلفا، فتنسج الوقائع نسجا، بما يوافق هذا المذهب.

6–النظرة الوضعية نظرة ذاتية ميتة :من حيث أنها لا تربط ولا توازن، ولا تدرك العلاقة المتبادلة بين سائر القيم التي تصنع التاريخ، مادية وروحية، طبيعية وغيبية، وإنما هي نظرة تنطلق من مسلمات مسبقة وضعها المؤرخ في ذهنه.

7–النظرة الوضعية نظرة مادية أحادية البعد أو نظرة لاهوتية مجردة :فإما أن تكون النظرة الوضعية نظرة لا تفارق الواقع المادي(ماركس، كارل بوبر)، وإما أن تكون نظرة لاهوتية مجردة، مجانبة للواقع.